مقاربة سوسيوتاريخية لمؤسّسات التعليم الديني، مؤسّسة الكتّاب بالمغرب الأقصى نموذجا

A historical sociological approach to religious education institutions, the Al-Kuttab Foundation in Al-Aqsa Morocco as an example

د. حنان الزوالي جامعة سوسةzaoualih2008@yahoo.fr

تاريخ الارسال:2024-01-25 **تاريخ القبول:**2024-02-24 **تاريخ النشر:2024-03-25**

ملخص

ارتبطت حركة التعليم الديني ببلدان المغرب عامة وبالمغرب الأقصى خاصة بتعلّمية اللغة العربية وحفظ لقرآن الكريم في مؤسسات تشرف عليها السلطة أوأفراد من الحقل الديني.

وقد مثلّت هذه المؤسسات بنظمها المعرفية وخطاباتها الدينية تراثا ثقافيا وعلميّا وجب إعادة النظر إليه وتناوله بالبحث من زوايا معرفية متعدّدة تراعي تاريخية المسألة وأبعادها التربوية والاجتماعية

يهدف بحثنا إلى تحليل بنية مؤسّسة الكتّاب وتحديد مدى محورية التعليم الديني في المغرب بناء على وجهتي نظر إحداهما استعمارية والأخرى وطنية عملتا على البحث في شكل هذا التنظّم المعرفي ودرس تأثيراته على الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية بالمغرب الأقصى إلى اليوم.

الكلمات المفتاحية:

كتّاب-تعليم ديني-استعمار-نخبة

Abstract

The religious education movement in the Maghreb countries in general and in the Morocco in particular was linked to learning the Arabic language and memorizing the Holy Qur'an in institutions supervised by the authorities or individuals from the religious field. These institutions, with their knowledge systems and religious discourses, represent a cultural and scientific heritage that must be reconsidered and researched from multiple cognitive angles that take into account the history of the issue and its educational and social dimensions.

Our research aims to analyze the structure of the Kuttab Institution and determine the extent of the centrality of religious education in Morocco based on two points of view, one colonial and the other national, which worked on researching the form of this knowledge organization and studying its effects on the social, cultural and political aspects in Al-Aqsa Morocco to this day.

Keywords: Kuttab, religious education, colonialism,elite.

المؤلف المرسل:حنان الزوالي

1. مقدّمة :

إن إحدى رهانات الثقافة العربية اليوم هي مراجعة التراث الديني وفهم آليات الخطاب الديني السائد، وما قد يطرحه هذا الفهم من مساحات ورؤى للتجديد، فلا يساء فهم صورته عبر العالم؛ وتعدّ المؤسسات التعليمية المتخصصة في الشأن الديني الأكثر تمثيلا للخطاب الديني وغرسه لدى المتعلم منذ اتصاله الأول بالعالم عن طريق ملكة التعلم والحفظ والقراءة، وقد ارتبط التعليم الديني في البلدان العربية عموما بمؤسسة الكتّاب التي ولئن تعددت تسمياتها باختلاف الفترات التاريخية والمواقع الجغرافية للعالم العربي، فإنّها مثلت تراثا علميا ما يزال جزء كبيرا منه يحتاج إلى بحث ونظر؛ وقد ارتأينا في تناولنا لهذه المؤسسة وضمن ما يفرضه المشروع من تعددّ الرؤى البحثية لهذه المؤسسة العلمية الالتفات إلى إحدى البلدان المجاورة وتتبع مسار مؤسسة الكتّاب فيها بأبعاده السوسيوتاريخية، إذ تتمتع مؤسسة الكتّاب بالمغرب الأقصى برأسمال رمزي استمدته من الطابع الديني المحافظ الذي يتميز به المجتمع المغربي، كما أن تاريخ خضوع المغرب للاستعمار سنة 1912 المتأخر نسبيا مقارنة بالبلدان المغاربية جعل منه حقلا خصبا لروّاد السوسيولوجيا الاستعمارية من أجل فهم طبيعة مجتمعه وفاعلية مؤسساته حتى يسهل عليهم إخضاعه وتدارك أخطاء الاستعمار المباشر بالجزائر خاصة، فالكتّاب كمؤسسة تعليم ديني يتواجد على حدود المساءلة بين ما هو اجتماعي وما هو ديني ويعدّ أحد صور جدلية العلاقة بينهما، سأتطرق إذن إلى الامتداد التاريخي لهذه المؤسسة مع رسم تصوّر منظّري سوسويولوجيا الاستعمار لهذه المؤسسة من جهة والنخبة المغربية من جهة ثانية ثم في مرحلة لاحقة رصد مدى نجاعة هذه المؤسسة تعليميا واجتماعيا في المغرب اليوم.

2. مؤسسة الكتّاب بالمغرب الأقصى: التعريف بالمؤسسة وتاريخيتها.

مثلما هو الشأن بأغلب البلدان الإسلامية ارتبط نسق التعليم بالمغرب بتعليم اللغة

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

العربية وبتحفيظ القرآن في مؤسسات خاصة تشرف عليها الدولة أحيانا وأحيانا تنتمي لبعض الجهات أو الأفراد من الصلحاء، ويعدّ الكتّاب والتعليم القرآني الذي يمثله أحد مظاهر الحياة الفكرية والتعليمية في مختلف أطواره التاريخية على اختلاف ملامحه الشكلية.

2.2 التعريف بمؤسسة الكتّاب وتعدد التسميات في المغرب الأقصى: لقد كان الصبية المغاربة يتلقون تعليمهم القرآني في مدارس قرآنية مسمّاة بكتّاب لكنها عرفت في الموروث المغربي وكتب التاريخ المغربي بمصطلح "المسيد" وهي المؤسسة التي يؤمها الطفل في سنّ الخامسة من عمره لحفظ القرآن والأحاديث، والمسيد هي كلمة تستعمل في العربية المكتوبة في كل أرجاء المغرب وقد اشتقت كلمة مسيد لغة من (مسد) بمعنى أدأب السير ، إذ (المسد) – بمعنى السير الدائم ليلا كان أو نهارا، المسيد إذا هو المؤسسة التربوية التي أعدت لصقل العابد المسافر إلى مولاه ليستغل ليله ونهاره في الإقبال على الله بتعلم القرآن وعلوم الشرع المتصلة به، وقد سادت هذه اللفظة في أغلب أرجاء المغرب كتعريف كناية عن الكتّاب وقد تستعمل لفظة "الجامع" في طنجة ومرّاكش وبعض الجماعات القروية في حين تستعمل لفظة "المعيمرة" في مناطق جبالة وكلمة المحضر في آسفي(Louis, février 1930, p. 82).

وقد كان للقائمين على الكتاتيب دور اجتماعي مهم بوصفهم جماعة مهنية لها أدوار كثيرة ومتنوعة، وكانت تسمّى "فقهاء الشرط" أو "طُلبة" مفرد طالب خاصة في المناطق القروية وهم من حفظة القرآن يعملون كمدرسين وأئمة، بناء على عقد خاص يعرف "بالشرط" يصبح بالتالي الإطار القانوني العرفي الذي ينظّم عملهم ومهامهم بالبادية(الهادي، 2012-2013)، ويتم الدفع لهؤلاء عن طريق الأولياء أو الوقف عينا أونقدا(Abdallah, 1977, p. 193).

ونجد اليوم صعوبة في تحديد التعريف الاصطلاحي للكتّاب وللتعليم الذي يمثله إذ يعترضنا أحيانا مصطلح التعليم الأصيل الخاضع لإشراف وزارة التربية بصفة نظامية وعمومية ، يعتمد فيه على المواد الدينية واللغة العربية، وأحيانا أخرى نجد أيضا مصطلح

"التعليم العتيق" والذي يقصد به «التعليم الديني» الذي كانت تعقد حلقاته في الكتاتيب القرآنية والمساجد والزوايا في السابق والذي يفترض التعويل بالأساس على تحفيظ القرآن وتلقينه، لكن أوضاعه تغيرت جذريا الآن، بعد أن تقرر تحديثه تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية منذ الثمانينات.

وما يميّز التعليم بالكتاتيب هو تعميمه بين مختلف شرائح المجتمع المديني منها والقروي مع اختلاف ظروف التلقين ولهذا التعليم في المغرب مؤيدين كثر ،وقد تخرجت من المدرسة القرآنية نخب تعاقبت على المغرب وساهمت في تجذّر هذا التعليم المرتبط أساسا بالنزعة الدينية والقيم الإسلامية؛ يبدو من المجدي هنا فهم التطور التاريخي للتعليم القرآني ومؤسساته في المغرب الأقصى حتّى نفهم عناية المغربي بالتعليم القرآني وما تحظى به الكتّاب من أهمية في المجتمع المغربي تجعل له أبعاد تاريخية وروحية.

2.2 التطور التاريخي لمؤسسة الكتّاب بالمغرب الأقصى: بإلقاء نظرة تاريخية على التعليم القرآني في المغرب، يمكن التأكيد على أن وجوده ارتبط بالفتح الإسلامي للمغرب الأقصى على يد عقبة بن نافع الفهري وبعده موسى بن نصير في العقد الثاني من القرن الأول هجري، إذ شيّدت المساجد واعتبرت دور عبادة وتعلم للقرآن ونشره بين الناس. وقد تعاقبت على بلاد المغرب منذ انتشار الإسلام به عدّة دويلات كان لأغلبها تأثيرا على التعليم القرآني. وربّما ما ميزّ المغرب وجعله رمزا للتعليم الديني هو وجود أقدم جامعة بها وهي جامعة القرويين إذ بنيت الجامعة كمؤسسة تعليمية لجامع القرويين الذي قامت ببنائه السيدة فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني نسبة لمدينة القيروان عام 245 هـ859/م، في مدينة فاس المغربية تحت حكم الأدارسة، وحسب موسوعة جينيس للأرقام القياسية فإن هذه الجامعة هي أقدم جامعة في العالم والتي لا زالت تُدّرس حتى اليوم العلوم الشرعية وما اتصل به،. وتجدر الإشارة إلى أن فترة المرابطين (1056م448/هـ1147-م541/هـ) كانت فترة ازدهار تعليمي بالمغرب حيث انتشرت في القرن الخامس 5 ه الكتاتيب بالمدن والقرى ولاقى التعليم القرآني

رواجا تواصل اثر اقتسام المغرب الإسلامي وتشييد المدارس خلال حكم الموحدين(1147م - 541 هـ إلى 1269م-667هـ) وواصلت الحركة التعليمية ازدهارها أثناء فترة حكم المرينيين الذين عرفوا بإيلاء العلم والعلماء مرتبة مميزة خاصة في بداية حكمهم حتى أن بعض المؤرخين ينسبون تأسيس المدارس القرآنية إلى العهد المريني في القرن 6 هـ فعرفت خلال العهد المريني ازدهارا واسعا بالمدن خاصة مدينة فاس التي أضحت قطبا علميا استفادت منه مدن أخرى كسلا، مكناس ومراكش((محمد)، 1987). ومن بين المدارس القرآنية التي عرفت خلال العهد المريني بمدينة فاس المدرسة المصباحية وهي مدرسة تاريخية بمدينة فاس المغربية كانت مزارا لنهل علوم الفقه والفلك لقرون عدة بالإضافة إلى مدرسة " الصفارين" التي أسسها " السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني" مؤسس فاس الجديد سنة 650هـ/1252 م وهو ما أمكن اعتبار مدينة فاس المركز الثقافي الوحيد بالمغرب الأقصى وذلك لما تتمتع به هذه المدينة من إشعاع ديني وثقافي في كل المغرب وتجاوزها إلى البلدان المجاورة وجعلها قبلة طالبي العلم.

إن هذه المدارس تعتبر إرثا مرينيا يبرز شغف رجال الدولة المرينية بالعلم واجتهادهم في إرساء سياسة تعليمية بالمغرب، وأغلب هذه المدارس تابعة لأحباس المساجد المتأتية من العطايا ممّا يوّفر دخلا لها يمكنها من تدريس الطلبة وإطعامهم وهو ما يبرز الصلة الوثيقة بين مؤسسات الأوقاف والتعليم جعلتها داعما إقتصاديا ثابتا(Michaux، 1911، صفحة 05). وكان اتجاه المغاربة الاهتمام في الدرجة الأولى بتحفيظ القرآن الكريم وأخذ المتعلمين أثناء مدارسته بتحصيل قواعد الرسم القرآني(محمد، 2000، صفحة 271).

إن هذا الازدهار خلال العصر الوسيط لحقه ركود خلال الفترة الحديثة شملت أغلب النواحي الاقتصادية والاجتماعية للبلاد أدت بالمغرب إلى السقوط تحت الاستعمار المزدوج الفرنسي الاسباني بعد صراع القوى الأوروبية حوله، فعرف التعليم بالمدارس بدوره ركودا أبقى على التعليم الديني بالكتاتيب سواء بالمدن والقرى هو الغالب حتى أضحت الكتاتيب

قبل فترة الحماية الفرنسية إحدى المشاهد المميزة للمدن والقرى المغربية في عنايتها بالتعليم القرآني فكان يوجد في كل قرية على الأقل مسيد واحد بل أيضا في كل دوّار أمّا المدينة فتوجد بها عدّة مساجد ففي فاس وحدها كان هناك 135 مسيدا في مطلع القرن(A.Peretié، 1912). ولم يكن آنذاك دور المسيد أو الكتّاب في المجتمع المغربي يقتصر على التعليم فحسب، وذلك لسببين أولهّما: أن التردد على "المَسْيَد" يعتبر ضمن حلقات التنشئة الاجتماعية للأطفال بين سني 3 و7 سنوات والذين بارتيادهم للمسيد ينفصلون لأول مرة عن العالم النسوي للأخوات والأمهات والجدّات في البيت ولسبب ثان هو أن الأطفال يفترض فيهم تعلّم مبادئ الأخلاق والمروءة في "المسيد"(جيمس، 1991، صفحة 19). إنّ هذا الأمر ممّا يجعل الأطفال الذين مرّوا عبر مؤسسة الكتّاب يتمتعون بنوع من الحظوة لكونهم من حفظة القرآن في مجتمع يولي أهمية كبيرة للتربية الإسلامية لما لها من دور في تكوين الأبناء العقدي، الاجتماعي والإنساني من ناحية الأخلاق والسلوك.

كون التعليم الديني أحد السمات المميزة للمغرب على تعاقب الحضارات التي مرت به جعل منه محطّ أنظار الملاحظين الوافدين من الغرب لاكتشاف معالم حضارة تختلف عنهم من خلال المؤسسات الفاعلة بها فأحاطوها بالدرس قبل غزوها وهو ما استدعى من البحث في موقف هؤلاء الاستعماريين في مرحلة أولى ثم الاطلاع على موقف النخبة الوطنية المغربية من الكتّاب في مرحلة ثانية ضرورة علمية حتى نتمكّن من خلق موازنة ما بين الرؤيتين ننشد منها النصيب الأكبر من الحقيقة.

3.مؤسسة الكتّاب بين تصورات السوسيولوجيا الاستعمارية والنخبة المغربية.

لطالما شكلت المؤسسات الدينية ذات الصبغة الاجتماعية محل تناظر بين تجربتين تاريخيتين غير متكافئتين، فنجد من جهة الاستعمار الفرنسي المرتبط بالنظام الرأسمالي والمشبع بالأفكار الاستعمارية الفرنسية لمنظريه و من جهة أخرى المغرب الأقصى المنشّد إلى

إرث تاريخي يبدو لهؤلاء الاستعماريين زاخرا بمظاهر الضعف التي حاولوا إظهارها واستغلالها لفرض الهيمنة الاستعمارية عليه في مرحلة أولى ثمّ معاينته ومحاولة فهمه في مرحلة لاحقة، من هذا الجانب سنحاول تبين تمثل السوسيولوجيا الاستعمارية لمؤسسة الكتّاب وللتعليم القرآني الذي تمثله المؤسسة وفق نسق فكري ايديولوجي يضمن لها التوسع المادي والرمزي على حساب المغاربة، ولنفس السبب سنطرح موقف النخبة المغربية من إحدى المؤسسات التعليمية التي شكلت أحيانا أحد أبعاد هويتها التي تسعى للمحافظة عليها ومجابهة التدخل الاستعماري بها.

1.3 تمثل السوسيولوجيا الاستعمارية لمؤسسة الكتّاب: لا تختلف مؤسسات التعليم عن بقية المؤسسات وهياكل الدولة المغربية من حيث طرحها للتساؤل والتقصي من طرف الاستعمار الفرنسي في مرحلة التحضير للاحتلال، حيث عمد إلى الانتفاع بخدمات العلماء والمبشرين ورجال الدين وعلماء الاجتماع وحتى ملاحظات العسكريين لتجاوز أخطاء الاستعمار المباشر، وما كبدته لفرنسا من خسائر مادية وبشرية خاصة في الجزائر. سنحاول هنا تبين موقف السوسيولوجيين الاستعماريين الأُوَل الذين واكبوا الاستعمار ومهدّوا له بكتاباتهم من التعليم القرآني ومؤسسة الكتّاب أو المسيد ثم في مرحلة ثانية سنعاين مواقف جيل ثاني من السوسيولوجين الاستعماريين وفهم رؤاهم وكلها تندرج ضمن ما اصطلح عليه أدب الاستشراق وما عرفه من فرق وتيارات مختلفة(جماعي، 1980، صفحة 334)؛ لقد كان تركيز "البعثة العلمية المغربية" بالمغرب منذ سنة 1904 بإشراف أحد أقطاب السوسيولوجيا الاستعمارية بمعهد فرنسا(collège de France) ألفريد لي شاتليه، يندرج ضمن مشروع فرنسا استكشاف المناطق الاستعمارية قبل غزوها وتسخير آلياتها الفكرية للبحث في هياكل الدولة المغربية وفهم مساراتها والمؤسسات المتحكمة في مجتمعها من أجل تسهيل مهمة الاستعمار، ولقد مثلت "البعثة العلمية المغربية" أحد المخابر الاستعمارية للتأمل في خصوصيات المجتمع المغربي عن طريق دوريتان تضمّان مجمل الرؤى والمواقف من المجتمع

المغربي بمختلف هياكله السياسية وأنساقه الاجتماعية وهي "مجلة العالم الإسلامي" و"الأرشيفات المغربية" والتي احتوت على دراسات تخص المجتمع المغربي ومجتمعات شمال إفريقيا عامة. ولفهم مميّزات شخصيتهم الحضارية والفكرية والاجتماعية؛ فقد اتخذت أكثر المسائل حيوية لبلورة إيديولوجيتها في التعامل مع المجتمع المغربي وهي الدين والتعليم لدورهما الفاعل في تحديد هوية الشخصية المغربية، وما التعليم القرآني سوى إحدى المنافذ التي اتخذتها الكتابات الاستعمارية لفهم المجتمع المغربي خاصة أنه كان يعدّ من السمات المميزة للأسر المغربية وعدّ أحيانا أحد محددات التراتب الاجتماعي لديها(أحمد، 1994، صفحة 121).

من هنا يبدو من المهم الإطلاع على فحوى هذه الكتابات وأهمّ الرؤى التي مررتها عن واقع التعليم القرآني بالمجتمع المغربي لدعم أفكارها، بما يبعث على التساؤل ويحث على نقد آليات الخطاب الاستعماري.

لقد انتقد ميشو بلير عن طريق مجلة العالم الإسلامي التعليم القرآني المتوارث منذ قرون والذي يعتمد أساسا على القرآن والحديث وتفسيرهما(Michaux، 1911). كما قدّم وصفا دقيقا لمؤسسة المسيد المخصصة لتحفيظ القرآن والذي ارتبط في أماكن كثيرة بالمسجد الذي كان مكان عبادة ومكان علم وهذا يعود حسب رأيه إلى إيمان المغاربة بأن الحفاظ التام على شريعتهم يعني الحفاظ على الإسلام(جماعي، 1980، صفحة 342)نفسه وأن العلم أحد السبل لبلوغ هذه الغاية وذلك للمرجعية الدينية التي تعتبر أنّ العلم فريضة، إذ يرى الباحث الاستعماري أنّ العملية التعليمية بالمغرب برغم صبغتها التلقينية تتحكم بها شخصية الفقيه التي تتحولّ إلى رمز اجتماعي في المدن والقرى حيث تكتسب هذه الشخصية مكانة مرموقة ويتنافس السكان لإرضائها عن طريق تقديم الهدايا وتمتّعه بامتيازات مادية ومعنوية في مجتمع بسيط يراه عالما مهما تواضعت درجة علمه ممّا يجعل التلاميذ يخافونه ويخافون أكثر عصاه(Michaux، 1911).

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

تعلل "البعثة العلمية المغربية" تقهقر التعليم في المغرب بقصور الدولة المغربية في مجال التعليم وعدم إبلاءه ما يستحقه من دور في النهوض بالشعب، بالإضافة إلى المناهج المعتمدة على تقاليد بالية وممارسات تجاوزها العصر؛ فالأساليب البالية المتسمة بالتلقين دون مراعاة إيقاظ الفكر والتمسك بها جعل المنظّر الاستعماري يسقط في مقارنات آلية قائمة على ثنائيات دغمائية الغرب/العرب، مسيحية/إسلام، عرب/بربر ويطرح النموذج الغربي كبديل يشرّع سلطة المستعمر على مجال التعليم لأنه الطريق الأسهل للسيطرة على العقل المغربي فيخرج بالتالي هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الفرنسية(Michaux, l'islam et l'état marocain, 1912, p. 24). ويندرج كل ذلك في إطار المهمة الحضارية التي سعى الفرنسيون من خلالها لترسيخ وجودهم الاستعماري.

إنّ هذا الموقف ولئن تمثله سوسيولوجيا الاحتلال التي مهدت للاستعمار التغلغل في المغرب الأقصى، فإنّه قد قوبل بالنقد من طرف روّاد السوسيولوجيا الاستعمارية اللاحقة أمثال عالمي الاجتماع جاك بيرك وبول باسكون الذين حاولا في دراساتهم للمجتمع المغربي أن يمارسا نقدا ذاتيا على السوسيولوجيا الكولونيالية المرتبطة بالاحتلال و تجاوز النظريات الايديولوجية المبنية على الانقسامية(مختار، 1989، صفحة 284) والتي تكون في خدمة السياسي وتبرر ارتباط السوسيولوجي بالسياسة الاستعمارية لتبرير تدخلها في المغرب. لقد اعتمد هذا التوجّه على البحث الميداني ومراقبة تركيبة المجتمع والتوصل إلى أنّه مجتمع مركّب يعيش دينامية يصعب إخضاعها للايديولوجيات التفكيكية. يعتبر جاك بيرك أنّ مسألة التعليم قد عرفت تطورا إيجابيا بعد أن تجاوز المغربي طور الحفظ والتلقين وأصبح يقرأ وهو ما شكلّ حسب رأيه "ثورة رهيبة"(Jacques، 1978، صفحة 195)، كما فنّد النظريات الكولونيالية بإعادة النظر في روابط الشرع بالعرف ومتابعة التحولات الاجتماعية التي عرفتها القبائل الأطلسية والإطلاع على أنظمة التعليم القرآني بها وحالة المسيد الذي لم تكن هيئته مريحة والذي يسيطر عليه الفقيه بكل ما أوتي من سلطة على الصبيان وعلى

أهلهم، وهو في هذا لم يخرج عن النزعة الاستعلائية للاستعمار وعن تهميش دور التعليم القرآني وإبراز هشاشته. ولا يختلف موقف السوسيولوجي الفرنسي بول باسكون عن هذا الموقف بل يتجاوز إلى اعتبار الكتاتيب بتعليمها البالي مكرسة لنمط من أنماط السذاجة ضمن نسق متحوّل قائم على الأساطير والمعتقدات وعلى قوى الفقيه الخارقة بمجمل أرجاء المغرب وخاصة بالأطلس ويرتبط هذا الأمر ضمن الأنساق التي تؤدي نفس الوظائف التعليمية والإيديولوجية كالزاوية وتشترك معها في نشر الإيديولوجية الدينية حسب رأيه((B.E.S.M)، 1986).

إنّ استعراض مواقف الاستعماريين من مسألة التعليم القرآني تؤكد النزعة الدونية التي ينظرون بها إلى المؤسسات الدينية والتعليمية بالمغرب الأقصى إذ لم يستطيعوا التخلص من مثاليتهم الغربية بطريقة تجعلهم يدرسون المجتمع المغربي في بيئته المحلية وضمن مميزات عقلية أفراده البسيطة في حدود ما تقتضيه الدراسات من موضوعية رغم اختلاف المقاربات حيث أن عمل البحث لم يدفع إلى مداه إذ وقع الاكتفاء في غالب الأحيان باستعمال المعلومات المجمّعة لتزكية نظام الحماية والسياسة التي يطبقها(ألبير، 1985، صفحة 352).من الجدير بالبيان هنا أن ما يتفق حوله مؤرخو الاستعمار ممن واكبوا الاحتلال أو انتقدوه هو التماهي بين ما هو ديني وما هو اجتماعي وسياسي في المغرب خلال الفترة الاستعمارية والفترة السابقة لها وتواصله بشكل من الأشكال إثر الاستقلال. ربّما ما سمح بهذا التمثّي الاستعماري هو الحالة التي كان عليها التعليم الديني بالمغرب حين إدراك الاستعمار له والتي لم تكن تتلاءم مع ما عاشه من ازدهار خلال القرون الأولى من الفتح الإسلامي. هنا وجب النظر في موقف النخبة المغربية الوطنية من التعليم القرآني ومؤسسة الكتّاب لأجل فهم سيرورة التطوّر التي شهدتها المسألة التعليمية بالمغرب وعلاقة النخبة بها.

2.3 **موقف النخبة المغربية من مؤسسة الكتّاب:** إنّ ما سمحت به مؤسّسة الكتّاب والمؤسسات الدينية عامة كالزاويا والمساجد في المغرب للقائمين عليها من أولياء صلحاء

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

وفقهاء من الانتفاع بريع من الكرامات والسلطة الروحية لدى أهل المغرب والتمتع بنفوذ استمدوه من مكانتهم الدينية أولتهم مرتبة الأشراف وجعلتهم من الخاصة خلال الفترة القبل استعمارية(محمد ا.، 2006، صفحة 37)وما ساهمت به الكتاتيب القرآنية في مرحلة أولى والتعليم الديني من مراحل متقدمة في تخريج فئة من النخب "الشريفة" تولت مهمة التدريس والإفتاء والإمامة والخطابة والتوثيق العدلي وأغلب المهن المرتبطة بالقضاء الشرعي(جميل، صفحة 03)سرعان ما جعل مكانة هذه النخب "الشريفة" تتزعزع مع التطور الذي عرفه المغرب وانفتاحه على أشكال تنظيم مجتمعية جديدة وتطوير أنساقه المعرفية، فلقد تولّدت نخبة عصرية ذات مشارب تكوينية مختلفة أثرت حتما على نظرياتها ومواقفها من المؤسسات التعليمية الوطنية، ومن النخب التي عرفت بموقفها الصارم من التعليم الديني نجد أحد وجوه الحركة الوطنية المغربية علال الفاسي والذي يعدّ نفسه سليل التعليم القرآني وأحد أبناء الجيل الذي تتلمذ في الكتّاب في صغره ومن خريجي جامعة القرويين بفاس، لقد كانت هذه الجامعة هي الملاذ لحرية التفكير بالمغرب الأقصى خلال الفترة الاستعمارية ورغم مضايقة الحصار عليها من طرف المستعمر إلّا أنها ظلت المعقل الوحيد علميا وسياسيا ودينيا الواقفة ضده(الهادي ا.، 2002). ولقد كانت مسألة التعليم الديني جوهرية بخطاب النخبة المغربية وشكلت موضوعا هاما لكتاباتهم ولمساجلاتهم الفكرية ضمن مسار حركة التحرر المغربية من أجل الدفاع عن الهوية الإسلامية في مواجهة المستعمر فقد كانت مطلبا بالغ الأهمية شأنه شأن الدعوة إلى إصلاح الدين وتحديث الدولة ومؤسساتها في فكر علال الفاسي[1] ومن اتبعه من النخبة المغربية قبل الاستقلال(محمد ا.، 1987، صفحة 241). وقد حظيت مؤسسات التعليم الديني في فكر الفاسي بقيمة رمزية ووطنية حاول الدفاع عنها

1علال الفاسي(1910-1976): أصيل مدينة فاس، من أسرة عريقة علما ودينا، التحق بالكتّاب في صغره لتلقي مبادئ الكتابة والقراءة، وحفظ القرآن الكريم، التحق بجامع القرويين و حصل على الشهادة العالمية ، وبعد التخرج صار يقوم بدروس تطوعية في مختلف العلوم بجامع القرويين، تولى وزارة الدولة للشؤون الإسلامية عام 1961م ، ثم انسحب من الحكومة صحبة رفاقه في حزب الاستقلال عام 1963م ، وانضمّ بحزبه إلى صفوف المعارضة .

لـدورها في التكـوين الأخلاقي للأطفـال إذ أنـه يعتبر أن كل تقـدم للـبلاد لا يمكـن أن يـتّم إلاّ بـالرجوع إلى تعـاليم الـدين الإسـلامي الحنيـف واعتبارهـا المـنهج الرئيسـي لجميـع الخطـوات الضامنة لتحقيق قواعد حسن السلوك. وبالطبع، فهذه الغاية، في رأيه، لا يمكن تحقيقها إلا بتنظيم دروس دينية (إسلامية طبعا) وأخلاقية انطلاقا من تحسيس الأطفال بسيَر الأنبياء والأولياء التي تقدم للشباب أمثلة للاحتداء(الحميد، 1978، صفحة 149)"، وهذا التوجه لم يشمل الكتّاب وحده وإنّما كامل منظومة التعليم الديني بالمغرب انطلاقا من الكتّاب وصولا إلى جامعـة القـرويين مـرورا بالمـدارس القرآنيـة والزوايـا والتي اتخـذت النخبـة المغربيـة زمـن الاستعمار من الدفاع عنها وحث المغاربة على ارتيادها سياسة خاصة لمقاومة المستعمر، فتم إحـداث خـلال فترتي العشـرينات والثلاثينـات مسـايد منقحـة تتموقـع بـين المسـيد التقليـدي والمدرسـة الحديثـة وتقـع تحـت إمـرة فقيـه يكـون عـادة طالـب تابـع دراسـته بـالقرويين أو تتلمـذ على فقيه مشهور ويتضمن المنهاج الدراسي القرآن واللغة العربية وقواعد الإسلام(جيمس، 1991، صفحة 77). كما تمّ تبني النخبة الوطنية وخاصة حزب الاستقلال بقيادة الفاسي لبرنامج تعريب التعليم والحفاظ على اللغة العربية في رغبة للتصدّي لكل أشكال الفرنسة التي أقـدمت عليهـا سـلطات الحمايـة بخصـوص التعليـم. وممّـا يحسـب للنخبـة المغربيـة التقليدية أنّ التعليم الديني قد ساعد في تماسكها ومكنّها من الارتقاء الاجتماعي والمساهمة في النضال ضمن الحركة الوطنية رغم الاضطراب العميق الذي فرضه الاستعمار على نسق التطـور المجتمعي للمغـرب(Pierre، 2002، صـفحة 9)؛ مـا يمكـن التنبـه إليـه هنـا أن هـذا الموقـف المناصـر للتعليم القرآني من طرف النخبـة المغربيـة لم يتواصل إثر الاسـتقلال نظرا لاستنفاذ غاياته بل نرى أن المواقف تغيرت وأصبح التسارع نحو تخصصات عصرية تضمن للنخبـة نفسـها ولبقيـة الفئـات الاجتماعيـة المسـاهمة في بنـاء الدولـة الوطنيـة مثـل الهندسـة والطب والتجارة وتم التهافت على الكليات الفرنسية(Pierre، 2002، صفحة 213). وأصبح الأمر يتعلق بانتقاد التعليم الديني بكافة فروعه والسعي إلى إصلاح المنظومة التربوية، وهو ما

يبرر تنديد المؤرخ عبد الله العروي بمناهج التعليم في المساجد والكتاتيب القرآنية خلال الفترة الاستعمارية ونقده لنزعتها التلقينية وتكريسها لميزات التجرّد والإقصاء الاجتماعي لهذا التعليم(Abdallah, 1977, p. 193) كما بيّن أهم ما يميز هذا التعليم القرآني عن بقية المسالك التعليمية الأخرى ليس محتواه أو استقلاليته أو دغمائيته، وإنّما وظيفته الاجتماعية والتي حسب رأيه تنطلق من المسيد وتتواصل إلى جامعة القرويين بفاس التي تعتبر جامعة العلوم الشرعية الأولى بالمغرب(Abdallah, 1977, p. 199). وممّا لا يخفى عن المتأمل لتاريخ المغرب الأقصى أن الدور الذي لعبته النخب التقليدية المحافظة في مقاومة الاستعمار كان هاما وهو هنا لا يختلف عن باقي دول المغرب العربي حيث مثلت هذه النخب رمز التشبث بالهوية ومواجهة الثقافة الغربية الوافدة وخطر الاندماج فيها، فلقد منح الاستعمار هذه النخب التقليدية المنتمية للعائلات العالمة الفرصة للمشاركة السياسية من خلال مواجهتها للسلطان لعدم قدرة هذا الأخير حسب رأيها على حماية الإسلام ثم من خلال اتخاذ السلفية الدينية أحد دعائم الحركة الوطنية المغربية (Frégosi Franck, 2005, p. 38). فشكل التعليم القرآني ومؤسسة الكتّاب بخاصة أحد الحصون التي التجأت إليها النخبة المغربية من أجل شدّ المغاربة إلى هويتهم ومجابهة الاستعمار.

إنّ هذا الدور الذي أنيطت به مؤسسات التعليم الديني بالمغرب الأقصى بما فيها الكتاتيب من حيث مساهمتها في التحرر الوطني ثم تراجعها اثر الاستقلال لم ينف وجودها من المشهد التعليمي المغربي اليوم، ممّا يحثنا على مساءلة واقع المؤسسة اليوم ضمن العملية التربوية بالمغرب.

3.3 **مؤسسة الكتّاب بين محاولات التطوير والتشبث بالأصالة:** إن ما لمؤسسة الكتّاب من إرث ثقافي وتعليمي في الذهنية المغربية يجعل لها مكانة من حيث مساهمتها في التكوين الثقافي والعلمي والأخلاقي للناشئة ويطرح بمقتضى ما تفرضه الحداثة مسألة بلورة أطروحة بديلة تتلاءم مع التغييرات التي عرفها التشكّل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للمغرب وما لها

من تأثير على مسألة التعليم بأنواعه وخاصة القرآني منه، لقد تحولت وظيفة الكتّاب خلال فترة الاستقلال من تلقين القرآن وتحفيظه إلى المحافظة على مقومات الهوية الإسلامية والشخصية الوطنية وضمان استمرارها وهو نفس الدور الذي لعبته هذه المؤسسة في مختلف المجتمعات المغاربية كتونس والجزائر(مختارية، 2012). وربما تستقي هذه المؤسسة دورها الاجتماعي من شخصية القائم على الدروس فيها أي الشيخ المرّبي الذي يحظى بقيمة لدى الأطفال والأولياء كونه الشخص الأول الذي سيصطدم به الأطفال إثر الخروج من رحاب العائلة والذي سيكون له تأثيرا على شخصياتهم يتواصل في قادم المراحل التربوية التي يمرّ بها، من هنا كان للرأسمال الرمزي الذي يتمتع به الكتّاب شأنه شأن المؤسسات الدينية والطرقية التي يستمد منها أحيانا نوعا من القدسية للارتباط المكاني بها خاصة في القرى كالمساجد والزوايا يجعله ذو سلطة على عديد العائلات التي ترى فيه ضامنا لتربية دينية سليمة للأطفال قبل سن الدراسة.

إنّه من المهمّ التأكيد اليوم أن التربية الدينية تلقى اليوم نصيبا هاما من اهتمام الأولياء بالمغرب من جهة العناية بالقيم الإسلامية وتربية الأبناء على مبادئ الدين الإسلامي وتحفيظ كتاب الله وتعليمهم حسن الأخلاق، فإنّ ما طرأ على الحياة العصرية من تغيرّات أثرّ على القيمة التربوية والاجتماعية للكتاتيب وفسح المجال أمام مؤسسات تربوية غزت هي الأخرى المدن المغربية وأضحت من معالم تشكّل المشهد الحضري بها، ومع ذلك فإن التعليم القرآني لم ينقرض بل أن المغرب يشمل الآن نوعين من مؤسسات التعليم القرآني القبل مدرسي.

أوّلا: "المسيد" أو الكتّاب القرآني من جهة أولى كإحدى مؤسسات التعليم العتيق الراجعة بالأساس لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وهو ما أفقدها نوعا ما البعد التربوي العصري الذي ينشده أحيانا الآباء لأبنائهم وأضحت من الموروث الديني للمجتمع المغربي وتقدّم وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إحصاءات محيّنة بموقعها عن الكتاتيب القرآنية بكامل أقاليم المغرب خلال سنة 2017، ويمكن إجمال أهم المؤشرات الخاصة بها فيما يلي:

- بلغ عدد هذا النوع 11ألف و975 كتابا قرآنيا، 92,1% منها توجد داخل المساجد أو ملحقة بها في حين7,9% فقط توجد خارج المساجد؛

- وأن نسبة مرتفعة للكتاتيب القرآنية متمركزة بالوسط القروي 81,77%، كما أن 604 كتابا تسيرها جمعيات، أي بنسبة 5,04 % من مجموع الكتاتيب القرآنية.

- وقد بلغ عدد المتمدرسين بالكتاتيب القرآنية حسب نفس الموقع الوزاري الرسمي 321ألف متمدرسا، تمثل نسبة الإناث منهم 33,14%(https://www.habous.gov.ma/موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب)، وهي نسبة في تراجع مقارنة بإحصائيات سنة 2013 حيث بلغ عددهم 475 ألف.

المؤسسة الثانية: "الكتّاب" من جهة ثانية التابع لإدارة الدعم التربوي الراجعة لوزارة التربية المؤهلة لمنح الرخص لهذه الكتاتيب ولتحديد برامجها التربوية(Brigitte, 1998, p. 35).

فالمسيد أو الكتّاب القرآني يرتبط بالمسجد كمؤسسة دينية متبنية له وهو يتواجد خاصة بالمناطق الريفية بينما الكتّاب الما قبل مدرسي هو مؤسسة تتموقع بين المسيد ورياض الأطفال وتتوفر على برامج تربوية خاصة بالمرحلة العمرية للأطفال(بريجيت، صفحة 35). وقد أعتبر من طرف دراسة محينة لوزارة التربية بأنه مدرسة قرآنية "لا تتمتع بكل الوسائل والمعدّات المثالية لمؤسسة ما قبل مدرسة لكنه كذلك لا يقدّم صورة محسنة من المسيد(Lamdasni (A.)، 1993)وتعدّ المغرب 28 ألف كتّاب موزعين على كامل المملكة.

ومع ذلك، فإن الكتّاب كمؤسّسة تعليم ما قبل مدرسية تحظى بنسبة عالية من الإقبال عليها من طرف الأسر المغربية إذ أنه حسب دراسة قامت بها جمعية "أطفال" بالمغرب سنة 1991 فإنّ 7 أطفال من 10 يؤمون الكتاتيب كما أنه مؤسسة غير معروفة جيدا من طرف عموم الأولياء الذين ارتادوا الكتاتيب القرآنية في طفولتهم ويظنون أنهّا بقيت بنفس المستوى التلقيني القديم.

ما يمكن استنتاجه أن المنظومة التربوية الما قبل مدرسية بالمغرب لازالت محكومة بالثنائية التقليدية والعصرية وأنّها محاطة بلبس في فهم واقعها وجدواها التربوية من حيث الحيرة الذي يعرفها الأولياء في بحثهم عن ضمان النجاعة التربوية لأبنائهم من جهة مصالحتهم مع تاريخهم وثقافتهم لتجاوز حالات الاستلاب التي قد يعانيها سواء كانت غربية أو شرقية ومن جهة ثانية مع رغبتهم في الأخذ بأسباب الثقافة العصرية وتجاوز الفكرة البالية عن نمط المعرفة التلقينية التي عرف بها الكتّاب القرآني منذ نشأته والذي لم تنفع كثيرا محاولات التطوير في محوها. وهذا يبرز من خلال التسمية فنعت النوع العصري من التعليم الما قبل المدرسي الخاضع لوزارة التربية بالكتاتيب هو تشبث بجانب الأصالة في هذه المؤسسة العصرية حتى لا تخسر روّادها من الأسر المغربية المحافظة خاصة بالمدن وكذلك لإقناع جانب كبير من المغاربة الحريصين على مدّ أبناءهم بوسائل تعليمية حديثة أن هذه المؤسسة ستضمن لهم المناهج الحديثة وفق برامج خاصة تعدها وزارة التربية خصيصا للكتاتيب يراعى فيها الجانب القيمي الإسلامي والجانب الحداثي حتى لا تخسر مكانتها بالمدن لصالح رياض الأطفال الآخذة في الانتشار بين الفئات البورجوازية بالمغرب اليوم.

4. خاتمة.

تمثل مؤسسة الكتّاب أحد أوجه العلاقة بين الدين والمجتمع في المغرب الأقصى من خلال فئته الأكثر تأثيرا وقطاعه الأكثر تمثيلا للمجتمع عبر التاريخ وهو التعليم وقد شكلت هذه المؤسسة بتسمياتها المختلفة إحدى التجارب التربوية التي تطورت عبر التاريخ وأثارت جدلا ايدولوجيا وفكريا بين الاستعمار ورموزه والنخب الوطنية، كما أنّها تتواصل إلى اليوم بأشكال مختلفة أثارت فضول عالم الاجتماع وعالم التربية حتى يفهما دورها في سيرورة المجتمع وتحولها من مؤسسة تابعة للتراث الشعبي إلى مؤسسة بإمكانها المساهمة في الفعل الاجتماعي وفي الشأن التربوي والتربية الدينية بالأخصّ حيث ينادي الكثير بالعودة إليها كأحد ينابيع الثقافة السلوكية وفق التعاليم الدينية الإسلامية فيما ينادي البعض الآخر بإصلاحها وفق

ما تقتضيه خصوصيات التمدرس وضرورات تحسين المناهج التربوية والوسائل البيداغوجية للمؤسسات التربوية الما قبل مدرسية.

5. الهوامش:

- Abdallah, A. (1977). *les origines sociales et culturelles de nationalisme marocain (1830-1912).* Paris.
- Brigitte, E. A. (1998). La situation du préscolaireau Maroc. *Actes du Colloque International Sur L'Education Préscolaire: Problématiques Et Perspectives des 26, 27 et 28 Novembre 1997 à Rabat/Maroc*.
- Frégosi Franck, Z. M. (2005). *Religion et politique au Maghreb : les exemples tunisien et marocain introduits par Khadija Mohsen-Finan.* Paris: Publications de l'Institut français des relations internationales.
- Jacques, B. (1978). *le Maghreb entre deux guerres.* éditions le Seuil.
- Lamdasni (A.), B. (. (1993). étude éducative des actions du ministère de l'éducation nationale. *, Rabat, étude réalisée dans le cadre de la coopération, ministère de l'éducation et Unicef*.Louis, B. (février 1930). l'école coranique dans le monde musulman. *Bulletin de l'enseignement public du Maroc, vol 17*(n°102).
- Michaux, B. (1911). L'enseignement indigène au Maroc. *», Revue du monde musulman XV*.
- Michaux, B. (1912). l'islam et l'état marocain. *Revue du Monde Musulman, Année6*(Tome18).
- Peretié.A. (1912). les madrasas de Fès. *Archives marocaines , Tanger, vol 18*.
- Pierre, V. (2002). *École, élite et pouvoir en Tunisie et au Maroc.* éditions Alizée, Rabat.

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510

- أحمد ,ا .(1994) .*التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن ال 17 مطلع القرن ال20، دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية*.آفاق بدعم من مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء.
- ألبير ,ع .(1985) .*المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية*.الدار البيضاء :الدار البيضاء للطباعة والصحافة والنشر.
- الحميد ,ا .ع .(1978) .*الحركة الوطنيةالمغربية من خلال شخصية الأستاذ علال الفاسي*.بيروت : مطبعة الرسالة.
- الهادي ,ا .ع" .(2002) .مرفأ الذاكرة ."*مجلة العربي*)العدد .(522
- الهادي ,أ .ع .(2012-2013) .فقهاء الشرط وتحولات الحقل الديني القروي بالمغرب .*مجلة "إضافات*.(20/21)"
- بريجيت ,ا.(s.d.) .
- بيلي برايسون، و اسامة محمد اسبر. (2017). *موجز تاريخ كل شيء تقريبًا* (الإصدار الثانية). القاهرة: العبيكان للنشر.
- جماعي .(1980) .*مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الجزء الثاني، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم*.مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- جميل ,ح .(s.d.) .*تطوّر التصورات التربوية في المغرب قديما وحديثا*.موقع الألوكة.
- جيمس ,د .ج .(1991) .*حركة المدارس الحرة بالمغرب (1970-1919)، ترجمة السعيد المعتصم*.الدار البيضاء.
- محمد ,ا .(1987) .الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي .*منشورات مركز دراسات الوحدة العربية*.
- محمد ,ا .(2000) .*ورقات عن حضارة المرينيين*.الدارالبيضاء :منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20.
- محمد ,ا .(2006) .*المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين 1822-1792، ترجمه عن الانقليزية محمد حبيدة*.المغرب :المركز الثقافي العربي الدار البيضاء.

- مختار ,ا .(1989) .التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية في المغرب العربي :حصيلة نقدية، نحو علم اجتماع عربي، علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة.منشورات مركز دراسات الوحدة العربية.

- مختارية ,ت .(2012) .التعليم بالكتاتيب القرآنية في الجزائر في منظور الدراسات النفسية والتربوية المعاصرة .*إنسانيات*.

- /موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب. (s.d).https://www.habous.gov.ma

- (1986) .(B.E.S.M). ملف خاصبـ: بول (Vol. العدد. 165-166). 1986: المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع.

- (محمد), ا. (1987). مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط - المعرفة التاريخية. دار توبقال للنشر،

ISSN: 2830-8034 EISSN: 2830-9510